قصَّة الخلق بين الوهم والحقّ

The Story Of Creation Between The Illusion And TheTruth

د . هاني السِّيسي .
(مصر)

الملخَّص :

قصة الخلق بين الوهم والحق قصة خلق آدم عليه السلام أكثر القصص القرآني إثارة للدهشة .. وأشدها غموضاً .. لأنها تبحث في أصل حياة الإنسان في كوكب الأرض .. وارتباط الإنسان بهذه الأرض من أهم ما يفسر من الوجهة العلمية هذا التماهي الظاهري بين الجانب المادي في الإنسان / الجسد/ من جهة وأديم الأرض من جهة أخرى ... ونظراً لما لحق بهذه القصة من تصورات وتهاويم قد تنأى بها عن الحقيقة التي يمكن استنباطها من خلال الآيات القرآنية التي قدمت القصة في أكثر من موضع في سور مختلفة من القرآن .. وفي كل سورة يلقي السياق أضواء كاشفة على جوانب متعددة ومختلفة في قصة الخلق .. لذا رأينا أن نقدم قراءة جديدة لمشاهد القصة في مواضعها المتعددة في السياق القرآني .. وفي هذا الجزء الأول من البحث نكثف النظر لتأويل مشاهد هذه القصة في سورة البقرة

Abstract

With The Name Of God Sammary of Search about The Story of Creation between the fancy and The Truth The story of Adam's Creation is the most Quran stories amazing and obscurity ; because it searchs for origin of human's life on the earth . The relation Of Man with this earth is the important thing that explains (from the scientific side) the organic overlap between the human's materialist side (Man's body) and the dust of the earth . There are many imaginations about this story may be take it far away from the truth which we can extract from Quran's verses about this story in many places in different Suras of the Holy Quran . In every Sura we can find spot lights on many different sides about the story of creaturs . For this we saw that we must introduce new reading for scenes of the story in its places in Quran ; and in this part of the search we did our best efforts to explain these scenes in Baqara's Sura

المقال:

تظل قصة خلق آدم أكثر القصص إثارة وإدهاشا وأشدها غموضًا، حيث إنها تمثل أصل حياة الإنسان فى هذا الكوكب "الأرض"، وارتباط الإنسان بهذه الأرض من أهم ما يفسر من الوجهة العلمية هذا التماهي الظاهري بين الجانب المادي (الجسد) فى الإنسان من جهة، وأديم الأرض من جهة أخرى؛ فالقبضة من تراب الأرض الخصبة إذا حُللت كيماويًا تتركب من ستة عشر عنصرًا، وقطعة من جسم الإنسان إذا أجريت عليها التحاليل تتركب من العناصر نفسها، وهناك عناصر أخرى بنسب ضئيلة تصل بعدد العناصر إلى أربعة وعشرين عنصرًا؛ ولكن هناك مسافة هائلة فى مرأى العين بين الطين واللحم البشري فالطين مادة خامدة واللحم البشري نسيج حي متنام، وهي مسافة لم يقطعها العقل الإنساني ولن يقطعها فى المستقبل ، وبهذا فلن يكون الإنسان قادراً على أن يحول التراب إلى خلايا حية ؛ فالمسافة بينهما برزخ يستحيل عبوره على قدرات الإنسان لأنها فى الواقع تعبير عن إمكانات قدرة الله المتفردة بالخلق والإبداع، بالإحياء والإفناء؛ والعقل والروح والنفس قوى أودعها الله كيان الإنسان لا تدرك حقائقها وإن استطعنا الاستدلال بآثارها على وجودها.

إن قول الله تعالى : " ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده " [1] يمكن فهمه على أن الأجل الأول الذي جاء نكرة هو أجل الحياة البشرية السابقة على العهد الإنساني، وأما الأجل المسمى فهو أجل كل فرد من الناس المكلفين، وهذا تفصيل بعد إجمال فأجل كل فرد متعلق بالمسئولية والحساب والمصير [2].

فخلق الإنسان بدأ من طين أي : (كما يرى بعض الباحثين) فى شكل مشروع بشرى ثم استخرج الله منه نسلاً " من سلالة من طين" ثم كانت التسوية ونفخ الروح فكان الإنسان هو الثمرة فى نهاية المطاف عبر أطوار تاريخية سحيقة؛ ويتجلى هذا التأويل فى قوله تعالى : " الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه" [3] .

ونحن عندما نحاول تأويل قصة الخلق يجب ألا نقف عند حد أنها تخبرنا بتاريخ الإنسانية على هذه الأرض ، فهي – كما يرى المفكر الباكستاني محمد إقبال فى كتابه (تجديد الفكر الديني) – لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب، وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان من بداية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفسًا حرة قادرة على الشك والعصيان، وليس يعني هبوط آدم وزوجه أي فساد أخلاقي ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور

[1] الأنعام.

[2] انظر تفسير القرطبي- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

[3] السجدة 7- 9 .

أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس ، هو نوع اليقظة من حلم الطبيعة أحدثتها خفقة من الشعور[4].

هذا إلى أن القرآن لم يعتبر الأرض ساحة للعذاب سجنت فيها إنسانية شريرة العنصر، بسبب ارتكابها خطيئة أصلية كما جاء فى العهد القديم، فالمعصية الأولى للإنسان كانت أول فعل له تتمثل فيه حرية الاختيار ولهذا تاب الله على آدم كما جاء فى القرآن وغفر له حيث قال تعالى : " فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم"[5].

ويرى الدكتور عبد الصبور شاهين فى كتابه " أبي آدم" أن كثيراً مما يتحدث فيه المشتغلون بالدعوة مستقى من مصادر غير إسلامية، وأنهم يستقون من مصادر إسرائيلية بحتة، وقد هيمنت هذه الإسرائيليات على عقول الناس بشكل مدهش حتى صارت بمثابة عقائد راسخة فى نفوسهم[6].

ونحن نرى – كما يرى آخرون – أنه لابد من زلزلة الوضع الإسرائيلي المستقى من العهد القديم، ورواية العهد القديم رواية مغلوطة قطعاً ومحرفة، وكثير من الباحثين فى الغرب يتحدثون فى هذه القضية.

إن المعلومات التقليدية التي تحصر وجود الخليقة فيما لا يزيد عن عشرة آلاف سنة تفرض علينا تصوراً من منظور إسرائيلي وارد فى العهد القديم، أما الجانب العلمي فيؤكد أن هذه الخليقة ترجع إلى بضع ملايين من السنين، وهذا الاتجاه العلمي قائم على فكرة التفتيش فى الأرض وهو متفق مع نداء القرآن " قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق" [7] ؛ فالله أودع هذه الأرض قطعاً ما يدلنا على كيفية بدء الخلق وزمنه التقريبي الذي يقره العلم ويقبله العقل.

وربما تكون اللغة فى مستواها الدلالي مُعيناً لنا فى كشف أو استكناه بعض جوانب هذه القضية؛ فكلمة " بشر" كلمة قرآنية لا علاقة لها بلسان العرب إلا ما أخذ بعد ذلك من الجذر (ب.ش.ر) من بشّر واستبشر، وكذلك فلا مقابل لهذه الكلمة فى اللغات الموجودة الآن على الإطلاق ، فهذه الكلمة منحة إلهية إلى اللغة العربية، فاللغات الأشهر مثل الإنجليزية والفرنسية والعبرانية وغيرها من اللغات الحية ليس فيها ما يقابل كلمة " بشر"؛ وكذلك لم ترد هذه الكلمة فى شعر العرب قبل الإسلام مطلقا ولا فى معجم ألفاظ الشعر الجاهلي[8] ، وعلى هذا فالقرآن وحده تفرد باستخدام هذه الكلمة وهو يفرق بين كلمتي " بشر" و " إنسان" ، ومن ثم فالإنسان بشر ولكن ليس كل بشر إنسانًا، فبينهما عموم وخصوص مطلق؛ فالبشر سبقوا بأجيال وأجيال وخرج من البشر الإنسان المكلف وهذا هو الخصوص.

---

[4] انظر كتاب " تجديد الفكر الديني" محمد إقبال.

[5] البقرة 37.

[6] انظر " أبي آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة – د. عبدالصبور شاهين".

[7] العنكبوت 8.

[8] معجم ألفاظ الشعر الجاهلي.

وذكر الدكتور عبد الصبور شاهين أن آدم ابن البشر وليس أبا البشر، والنصوص القرآنية تتحدث فى البداية عن خلق البشر ثم تتدرج فى إخبارنا بقصة الخلق حتى تصل إلى الإنسان، وهناك مسافة فى التعبير القرآني بين البشر والإنسان.

وقد مر البشر بمرحلتين : مرحلة التسوية " فإذا سويته " ، ثم مرحلة نفخ الروح " ونفخت فيه من روحي " فكان الإنسان الذي سجدت له الملائكة بالأمر الإلهي " فقعوا له ساجدين"؛ إذن فالبشر هيئة أو خلق لم يكتمل ، وتسوية الله للبشر عبر ملايين السنين التي اقتضاها هذا الأمر وبالإرادة الإلهية إنما تمت عبر أجيال من البشر يتغير فيها كل جيل ويتقدم على ما سبقه على طريق التسوية، حتى تم تزويده بالعقل ثم يكتمل هذا العقل باللغة.

ويرى بعض الباحثين ومنهم الدكتور شاهين أن البشر فى مراحل التسوية الممتدة كانوا مجتمعاً أو مجتمعات بلا قانون، بلا قيم أو ضوابط، ولكن الله حين أراد عمارة الأرض، قدم المنهج وهو الدين، فالدين هو صانع الحضارة، وقد اختار الله آدم واصطفاه بنص القرآن " إن الله اصطفى آدم" ومعنى الاصطفاء الاختيار من بين مجموعة وهي البشر. والبشر خلق مستقل لم يتطور عن مخلوقات أخرى، تطور هذا الخلق ليصبح إنساناً، وهذا التطور ليس بالمفهوم الدارويني ولكن بمفهوم القرآن " وقد خلقكم أطواراً"[9] أي بدءًا من الخلق الأول مروراً بعملية التسوية حتى انتهائها ونفخ الروح، ويستخدم القرآن أدوات لغوية تشي بتراخي الزمن : " إذا سويته"[10] " ولقد خلقناكم ثم صورناكم"[11] " خلق الإنسان من سلالة من طين"[12] " ثم جعل نسله من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه"[13].

وبهذا تكتمل صورة البشر المؤهل لكي يتلقى رسالة الله ويتحمل التكليف؛ وذلك في صورة الإنسان؛ إذن فهناك فاصل زمني هائل بين بداية المشروع وبين ثمرته وهو الإنسان.

وهذه الفكرة ليست بجديدة فى معرض الفكر الإنساني، فهناك من سبق أولئك المفكرين المحدثين الذين قالوا بها، وروجوا لها، فقد أثر عن أبي العلاء المعري الشاعر الفيلسوف بعض أبيات تساءل فيها عن فرض أن يكون آدم هو أبا الأوادم، أم هناك أوادم أخرى يقول :

تقول الهند آدم كان
فسعى إليه مخلدوه
جائز أن يكون آدم هذا قبله
آدم على إثر آدم
وما آدم فى مذهب العقل واحد

[9] سورة نوح 14
[10] سورة الحجر.
[11] سورة الأعراف.
[12] المؤمنون ج1
[13] السجدة8.

ولكنه عند القياس أوادم[14]

وقد يعترض بعض الباحثين والمفكرين على هذه الفكرة، ويرفضون هذا الطرح حتى يقوم عليه دلائل علمية يقدمها علماء الجيولوجيا وأساتذة الأنثروبولوجيا ومنهم الدكتور عبد الحليم عويس أستاذ التاريخ والحضارة ، ويرون أن افتراض أن البشر كانوا أناسًا غير آدميين لم يكتمل خلقهم، ولم يكن لهم من الإنسانية إلا هذا الجسم وتلك المواضعات الطبيعية، فإن هذه الصور الجسدية لا تقوي على أن تكون حاجزاً بين مرحلة البشرية ومرحلة الآدمية؛ ولكن افتراض أن الله قد يكون أفنى البشر الأولين حين اصطفى آدم بعد اكتمال خلقه واستعداده لتلقى التكليف لتبدأ مرحلة الإنسانية مقطوعة الصلة عن مرحلة البشرية يجعل الأمر وكأن الإنسان الجديد إنسان آدم بدأ من الصفر من أبينا الذي نسب فى اسمه إلى أديم هذه الأرض.

ولكننا نرى أن الاجتهاد القائم على الدلائل الكونية والقرآنية وشواهد البحث العلمي هو اقتراب من مفاتح الغيب " وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو" والغيب كل ما غاب عن الإدراك والحس وجهله الوعي وصار فيه العقل وهو ممتد من الماضي مروراً بالحاضر وانطلاقاً إلى المستقبل.

ونحن نعتقد أن مجرد الخوف من الإيغال والخوض فى مثل هذه القضايا الشائكة يجعل من العسير استيعابها أو فهمها على وجهها الصحيح، ويحجب عنا آفاقًا واسعة من الرؤية وأبعاداً عميقة من الوعي ، ويفقدنا القدرة على قراءة آيات الله فى كونه وفى خلقه.

وإذا كان الإنسان لا علاقة له بالماضي البشري من حيث الطبيعة الاجتماعية وطرائق الحياة وعلاقته بعناصر الطبيعة والكون، وغموض أو وضوح الغاية من حياته، فإنه امتداد لهذا البشر وتطور بطبيعته، وما تزال الحياة البشرية الأولى تنازع إنسان آدم ما أمده الله به من ملكات وطاقات هائلة فى استعمار الأرض وإقامة الحياة القويمة على أسس من الحرية والعدل والحق والخير والجمال.

والإنسان لا يطلق بالمفهوم القرآني إلا على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة لا غير، وهو الذي يبدأ بوجود آدم عليه السلام، وآدم على هذا هو أبو الإنسان وليس أبا البشر كما ذكرنا آنفاً، ولا علاقة بين آدم والبشر – كما يرى د. عبد الصبور شاهين – الذين بادوا بعد اصطفائه تمهيداً لظهور ذلك النسل الآدمي الجديد ، اللهم إلا تلك العلاقة العامة أو التذكارية باعتباره من نسلهم قال تعالى : " وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين"[15]. وبناء على هذه المقدمة نجد أنفسنا أمام نتيجة منطقية؛ فليس غريبًا أن نتصور أن آدم جاء مولودًا لأبوين وأن زوجه جاءت كذلك على الرغم

[14] ديوان أبي العلاء المصري.

[15] الانعام 133.

مما قد يلقي هذا التصور من معارضة تلقائية ورفض عنيف دون تفكير، وهذا ما يذهب إليه ويقول به كل من قبل هذا التصور وأولهم د. عبد الصبور شاهين.

وفى هذا السياق يجدر بنا أن نقدم قراءة فى قصة الخلق التي وردت فى القرآن، فهي كما نظن أنها وردت فى أربعة أجزاء أساسية: أولها من حيث ترتيب المصحف فى سورة البقرة، وثانيها فى سورة الأعراف، والجزء الثالث فى سورة طه، والجزء الأخير في سورة ص.

ففي سورة البقرة ترد الحلقة الأولى من هذه القصة يقول تعالى : " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ { 30} وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {31} قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {32} قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ { 33} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ {34} وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ { 35} فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ { 36} فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ { 37} قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {38} وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{39}"[16].

تتعلق هذه القضية بوجه عام بماض سحيق لا يعلم حدوده إلا الله تعالى فقضية الخلق غيب من الماضي، ومن ثم فقد بدأت هذه الحلقة من القصة بـ " إذ" وهي حرف توقيت للماضي، ويرى المبَّرد أنه إذا جاءت إذ مع مستقبل كان معناه ماضيًا.

وتعتمد هذه الحلقة ابتداء على الله تعالى فهو الراوي العليم بكل دقائق الغيب المطلق وهناك المخاطب المخصوص والمناط به تبليغ الرواية وهو النبي ثم المخاطب المطلق وهو كل قارئ أو متلقٍ من الناس من بعد الرسول وإلى أن يشاء الله.

ويمكن النظر إلى هذه الحلقة فى خمسة مشاهد، أولها مشهد العرش الإلهي حيث جُمع الملائكة لكي يُلقى عليهم خبر تمثل في إرادة إلهية بأن يكون فى الأرض خليفة، وخليفة أي يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض، أو من كان قبله من غير الملائكة وهذا ما يرجحه سياق قصة الخلق على امتدادها فى القرآن ، باعتبار آدم بداية عهد الإنسانية، وانتهاء عهد البشرية بعد أن اصطفى الله آدم وزوجه من البشر الذين بادوا إيذانًا ببدء عهد جديد يحمل فيها الإنسان أمانة المسئولية عن عمله وينهض بعبء التكليف.

[16] البقرة من 30- 39.

والخليفة فى اللغة القائم مقام غيره، يقال هذا خلف فلان وخليفته والأصل فى الخليفة بغير تاء ودخلت التاء للمبالغة فى المدح بهذا الوصف، وعن ابن عباس أنه قال : إنه خلف من سلف فى الأرض كانوا قبله.

وقد قرأ بعضهم مثلما روى عن زيد بن علىّ؛ فإنه قرأ خليقة بالقاف والمراد هنا بالخليقة آدم عليه السلام وهو ثمرة المشروع الذي بدأ بالبشر، وانتهى بآدم الذي تمت تسويته وإمداده بالملكات والطاقات التي أهلته أن يكون خليقة تامة جديدة ومكنته من تلقى التكليف.

وهنا نقف عند أمر مثير للدهشة يبدو غريباً على ما استقر فى العقل الجمعي بوجه عام والعقل الجمعي المسلم بوجه خاص من أن الملائكة خلق مفطورون على الطاعة المطلقة دون جدال، وأنهم قد يكونون بلا عقل أو – على الأقل – منزوعي الإرادة، ولكنهم فى هذا المشهد يبدون اعتراضًا، ويتشكل هذا الاعتراض فى صورة استفهام أداته الهمزة " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء" وفيه بعدان : أولهما أن الملائكة خلق ركبت فيهم إرادة وأمدهم الله بملكة الإدراك فهم يفرقون بين الإفساد والإصلاح أو بين طرفي الثنائية المتعارضة التي يقوم عليها الوجود، والثاني أنهم رأوا البشر وعرفوا كيف كانوا يحيون على الصراع غير المنضبط والذي يفضي إلى القتل وسفك الدماء، وآدم ابن البشر ومن المنطقي أن تنعكس فيه طبائع آبائه وأجداده فظنوا استنادًا إلى المعطيات والشواهد أنه سيكون نسخة من هؤلاء البشر.

وحتى تتوضح الدهشة ويستقيم العجب كان لابد من استكمال الثنائية بذكر الطرف المتعارض مع الإفساد وسفك الدماء وهو الصلاح وفعل الخير: " ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك " والتسبيح: التنزيه من السوء على وجه التعظيم، والحمد: الثناء أي نجمع بينهما، ونقدّس لك: أي نطهر ذكرك عما لا يليق بك وهذا كله مما يستلزم العمل الصالح والتطلع إلى الخلافة وعمارة الأرض التي أسندت إلى آدم.

وينفض المشهد بذكر حقيقة كبرى هي العلم المطلق المحيط لله تعالى والذي يجمع الغيب والشهادة ويغوص فى أعماق الأشياء ويحيط بدقائق الأحداث (إني أعلم ما لا تعلمون" حقيقة مؤكدة لغويًا باستخدام " إن" ومنطقيًا باعتبار علم الخالق أمرًا لا يطار له على جناح ولا يسعى على قدم.

ويأتي المشهد الثاني ليسوق الدليل على أن الله يعلم ما لا يعلم الملائكة، والدليل يعني سبيلاً إلى الإقناع، والإقناع يعني وجود عقل يقبل ويرفض، ونفس أو قلب يطمئن أو لا يطمئن؛ فالملائكة يعبدون الله بإرادتهم وهم راضون غير مقهورين، فإذا قال تعالى عنهم إنهم " لا يعصون الله ما أمرهم" فإن نفي العصيان يعني إمكان وجوده؛ ونفي الفعل يشي بالقدرة عليه، وإذا قال تعالى عنهم أيضاً " ويفعلون ما يؤمرون" يعني أن إثبات الفعل يفيد إمكانية نفيه، وعلى هذا فنفي العصيان عن الملائكة وإثبات قيامهم بأداء ما يؤمرون به دليل على وجود منطقة حرة تمكن هؤلاء الملائكة من الاختيار بين متعارضين من الأمور أو الأفعال.

وخلاصة القول فى الملائكة أنهم خلق طغى الخير فى تكوينهم على ما عداه فاتجهوا فى أقوالهم وأفعالهم إلى عبادة الله وطاعته وليس فى هذا ما ينفي أنهم مختارون.

وفى سياق الإقناع نقف عند مفهوم الأسماء التي علمها الله آدم فنرى أن الأسماء لها بعدان أولهما: بعد المسمى أي ما يجسّد الاسم وهذا أمر قريب يمكن إدراكه أو الوقوف عليه وفهمه، وهناك مسميات تعز على الحصر وقف عليها الإنسان فى مرتقى رقيه ومعراج حضارته، وكانت من المجهول المكتشف وجوده، ولكن بلا هوية يندرج بها فى ألوان المعارف الإنسانية، وبعد التحليل والتمحيص استطاع العلماء أن يضعوا لهذه الموجودات أسماء تكون دليلاً عليها، وعلى هذا فالوقوف بمفهوم الأسماء عند هذا البعد أمر لا يليق بجلال الخالق وعظمة المخلوق الجديد الذي جعله الله استثناء من خلقه جميعاً.

والبعد الثاني بعد أكثر عمقاً وأقرب مناسبة إلى جلال الله وسمو خلقه، وهذا البعد يتعلق بكل ما يخص هذه المسميات وما يكتنفها من أسرار وقدرات مما يمكن آدم وذريته من التواصل معها وتطويرها بل وجعلها سبلاً لممارسة الحياة على الأرض بشكل مستقيم، واتخاذها ركائز للإنطلاق إلى عمارة الأرض كما أنيط به عند اصطفائه واستخلافه.

إذن فمفهوم الأسماء يمكن أن يتسع ويتمدد ليشمل ألواناً من المعارف الكونية والحياتية تنسجم مع ما وهب الله حياة الإنسان من قيم عليا، وتحيط بامتداد هذه الحياة المجهول ابتداء وانتهاء؛ وكل مجهول يعد غيبًا ، وكنه الغيب علم اختص الله به نفسه، علم أحاط بكل شيء عبر امتداد الزمن من الماضي الذي لا نعرف له ابتداء ولا يُستدل له على انتهاء، وكذلك أحاط علم الله بكل مكان فى هذا الفضاء العريض وذلك الكون الفسيح.

ويأتي ختام هذا المشهد ليختزل هذه الحقيقة الكونية الثابتة: " قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون" ويأتي الاستفهام المنفي فى بداية الآية للتقرير، أي تقرير القول بفعل يدل على صدقه وثبوته بالدليل، فقد علم الله آدم ما علمه من معارف لم تكن مما أتيح للملائكة من معارف وخبرات ظاهرة وباطنة، وهنا نقف على فيض من العلم اللَّدنّي لأن التعليم فى هذه الحال لم يكن بواسطة؛ وإنما تلقاه آدم بشكل مباشر من الله، وعلى هذا يجب أن نفهم هذه " الأسماء" والتي يمكن اعتبارها رمزًا فى سياق العلم اللّدنّى، وقد نتصور أن الفعل " عَلَّمَ" يفتح أمامنا بابين : باب الزمن وباب الكيفية؛ فقد يتساءل المرء عن الزمن أو المدة التي استغرقها التعليم، ولكن وبرغم أن الفعل ماض إلا أنه – فى رأينا- لا يرتبط بزمن قائم أو متردد بين الماضي والحاضر والمستقبل، وإنما يدل الفعل "علّم" على انقضاء الفعل ذاته أي فعل التعليم بلا ضرورة لإقحام فكرة الزمن لأن المشهد كله كان خارج إطار الزمان وغير معلوم المكان.

أما باب الكيفية فقد تكون من قبيل الإلقاء فى الرُّوع وهذه الكيفية لا يمكن تصورها فكذلك علّم الله آدم ما علّمه دون حاجة إلى الخوض فيها.

وعلم الله المحيط شمل كذلك ما أظهره الملائكة قبل أن يبدوه، إذن عندما كان غيبًا قبل أن يصبح مشهودًا " وأعلم ما تبدون" " وما كنتم تكتمون " أي ما أكننتموه فى أنفسكم عن عمد؛ وكان هنا ليست للدلالة على الزمن الماضي وإنما لتوكيد فكرة الكتمان والحرص عليها؛ فما كتمه الملائكة بكل ما يتعلق به من دوافع وغايات هو من قبيل الغيب الذي أحاط به علم الله المطلق[17].

أما استعمال ضمير الجمع العاقل " هم " فى " عرضهم" و "بأسمائهم " وكذلك استخدام اسم الإشارة للجمع العاقل " هؤلاء" فى قوله : " أنبئوني بأسماء هؤلاء" لغير العاقل، فإننا ننحو بهذا نحواً لغوياً: هناك ظاهرة لغوية شائعة فى عدد من اللهجات العربية لا تفرق بين الجمع العاقل والجمع غير العاقل فى إسناد ضمير الجمع العاقل إلى أيٍ منهما، وكذلك الحال فى استعمال اسم الإشارة أو الاسم الموصول اللذين يشار بهما دون حرج إلى الجمع العاقل أو غيره، ونرى أن التأويل اللغوي ينأى بنا عن الخوض فى تأويلات قد تصرفنا عن المنطقية أو العلمية فى سياق فهم النص القرآني، واستدلالاً على ما ذهبنا إليه ما ورد فى تفسير الطبري فى هذه المسألة : " وفى حرف ابن مسعود : عرضهن فأعاد على الأسماء دون الأشخاص لأن الهاء والنون أخص بالمؤنث وفى حرف أبيّ : عرضها " ؛وعلى هذا فالقراءات المختلفة قد تحسم الأمر فى هذه المسألة، فقد قرئ " عرضهن" وقرئ " عرضها" ، وكل ما سبق – على أية حال – يأتي فى السياق اللغويّ دون ما حاجة إلى كبير جهد.

وتستغرق قضية السجود لآدم جانبًا مهمًا من المشهد الثالث فيقول تعالى : " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين".

وقد جاء فى المعجم الوسيط : سجد سجودًا : خضع وتطامن ووضع جبهته على الأرض، وسجدت السفينة للريح : أطاعتها ومالت بميلها. وفى ضوء اللغة وما تحمله من دلالات نجد أن السجود له معنى خفي يتصل بالجانب المضمر فى تكوين الإنسان وهو أمر له دلالة الخصوصية التي لا يمكن الإطلاع عليها أو القطع بكل ما تحتويه وتنغلق عليه، وهناك بعد حركي لهذا المعنى يتمثل فى أن يضع الإنسان جبهته على الأرض وما يستلزم هذا من وضع معين يقوم على الحركة التي يتضافر فيها أعضاء الجسم المفصلية. وهذا الوضع الحركي الخاص للسجود قد يظهر المعنى الباطن له، ولكنه لا يؤكد وجوده، كما أن الانحناء للآخر لسبب أو لغيره لا يؤكد معنى الاحترام أو غيره من معاني الخوف أو الرهبة أو ما شابه ذلك، ويبقى الأمر كله منوطًا بالله تعالى الذي يطلع على الأفئدة ويعلم ما تخفى الصدور.

وعلى هذا فإن مفهوم السجود – كما نعتقد – أعظم من الظاهر أو الشكل المدرك ببعض الحواس، وهو كذلك أعمق من الباطن الذي يطلع عليه الخالق العظيم، والذي قد يتغير بين حال وأخرى، فوجود معنى أو إحساس بمعنى ما فى لحظة ما لا يعني ثباته أو استمراره، ومن ثم فمفهوم السجود لآدم فى هذا المشهد هو الخضوع للشئ أو القبول بالعمل فى خدمة آدم

[17] انظر تفسيرالطبري جـ1.

وذريته، التزامًا بأمر الله، وطاعة له سبحانه وهذا الالتزام وتلك الطاعة تظل حتى إشعار آخر، إذ لم ترد أية إشارة إلى توقيت هذا الأمر أو بيان مدته، فأمر السجود صور خارج إطار الزمن؛ وإن كان الزمن قد احتواه وكان عاملاً فى ثباته فيما بعد حينما بدأ آدم حياته الدنيوية على هذه الأرض.

اما استخدام الفاء فى " فسجدوا" فهو دليل لَغوي على سرعة الاستجابة للأمر الإلهي بقبول التكليف برعاية آدم وذريته بتقديم كل ما من شأنه مؤازرة هذا الخليفة للنهوض بالمهمة الكبرى التي أنيطت به وهي إعمار الأرض وإقامة الحضارة وصناع الرقي الذي وهب الإنسان من الملكات ما يمكنه من تحقيقه، وقبول الملائكة لأمر الله وسرعة ترجمته إلى فعل رمز إليه بظاهر السجود، هذا القبول يعني فهم هؤلاء الملائكة فهمًا غير منقوص، بحيث يقترن بالرضا، مما يجعله أكثر عمقاً ومن ثم ثباتاً فى نفوسهم لا تزعزعه ريبة ولا يهزه شك، وعلى هذا تعمل الفاء عملها اللغوي فى إفادة السرعة فى إظهار الفعل الدال على حسم أمر العلاقة بين آدم والملائكة فى اتجاه الود والاطمئنان وتسليم كل منهما بقدر الآخر الذي وضع له وقدراته التي أمد بها.

أما العلاقة بين إبليس وذريته من جهة وآدم وذريته من جهة أخرى فقد حسمها الاستثناء " إلا إبليس" حسمًا نظرياً على مستوى اللغة، ثم فعلياً " أبي واستكبر" فالامتناع عن الطاعة والقبول بالدخول فى مساندة آدم وذريته للنهوض بما أنيط بهم، هذا الامتناع رد فعل نفسي " أبى" ثم فعل بالاستكبار أو الاستعلاء، وهذا الإحساس المضمر يصحبه فعل حركيّ دال، فالمستكبر تدل على استعلائه مشيته وتصعير خده للناس، وهكذا فعل إبليس بأن امتلأت عليه جوانحه رفضاً للأمر الإلهي وبدت عليه أمارات الاستكبار.

ولابد أن نقف هنا لنعرف الفرق بين الإباء والاستكبار، فالإباء موقف نفسي يتبناه صاحبه ويصرّ عليه، أما الاستكبار فهو ما تقترفه الجوارح أو بعضها من حركات وعلامات لها دلالاتها على ما يعتمل فى النفس. وقد يكون فى تصورنا – لواو العطف فى " أبى واستكبر" معنى التماهي بين البعد النفسي والبعد الظاهري بحيث يقترنان لحظيا فلا يسبق أحدهما الآخر، وربما يشي هذا بالعنف والغلظة وشدة العداء.

والمشهد الأخير فى سورة البقرة يتمثل فى الجنة وقد سكناها آدم وزوجه بالأمر الإلهي المباشر ، حيث كانت هذه الجنة مقراً لأول اختيار جوهري لأدم وزوجه يمس طبيعة التكوين الإنساني الذي تفوق به آدم على سائر المخلوقات ، فاختاره الله خليفة فى الأرض وعلق عليه مسئولية أو مهمة عمارتها، ألا وهو الاختيار المتكئ على مساحة من الحرية فى التكوين العميق للإنسان تكون بدورها أساساً لفكرة التكليف المتبلورة فى : " افعل ولا تفعل ".

أما الجنة فى اللغة: فالأصل أن لفظ جنة هي بستان فيه شجر ولا يحمل على غير هذا المعنى إلا بصارف يصرفه، وعلى هذا يمكن القول بأن جنة آدم إذا نظرنا إليها فى إطارها المادي هي جنة خاصة خلقها الله فى الأرض لكي يسكنها آدم وزوجه، وبما أن آدم قد خلق فى الأرض من ذرية قوم آخرين " منها خلقناكم وفيها نعيدك ومنها نخرجكم تارة أخرى"، فلا يمكن قبول فكرة

أن جنة آدم هي جنة الخلد التي وعد المتقون، وذلك لأن هذه الجنة وصفها الله سبحانه بقوله : " لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاما " ، وقال " لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين" وجنة المأوى لا يجوز لإبليس أن يدخلها – بعد أن أصبح من الكافرين ويوسوس لآدم وزوجه بعد أن ظهرت طبيعة التمرد فيه واستكبر عن الاستجابة لأمر الله بالسجود لآدم.

ومن صفات جنة الآخرة أنها دار للنعيم والراحة وليست بدار تكليف ذلك الذي بدأ بـ " كلا منهما رغداً" و " ولا تقربا هذه الشجرة " ، فالأول أمر صريح ، والثاني صورة من صوره وهي النهي، فالأمر والنهي هما الشكل اللغوي البياني لقضية التكليف التي ارتضاها الإنسان وحملها وأصبح مسئولاً بها عن عبء الحياة الدنيوية بكل ما اشتملت عليه من مهام ثقيلة ألزم نفسه بها.

ولو كانت جنة آدم جنة الخلد لما كان إبليس فى حاجة إلى أن يزين لآدم وزوجه الأكل من تلك الشجرة ووصفها بأنها شجرة الخلد وملك لا يبلي فليس هناك حاجة إلى الأكل من شجرة تمنح الخلود ما دام هو فى جنة الخلد.

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي فى تفسيره المسمى بالتأويلات : " نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين أو غيضة من الغياض، كان آدم وزوجه منعمين فيها، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها، وهذا هو مذهب السلف، ولا دليل لمن خاض فى تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم " ثم قال : " وبهذا التفسير تنحل إشكالات كثيرة"[18].

ولم ترد أية إشارة إلى أن الله تعالى بعد أن خلق آدم ، عرج به إلى السماء، ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم.

ونحن لا نجد مانعًا من أن تكون الجنة التي سكنها آدم وزوجه حالاً كانا عليها، حالاً من الشعور البسيط ، الذي لا يرقى إلى مستوى الإحساس بالنفس الإنسانية وما تنطوي عليه من مطالب وحاجات يقتضيها هذا التكوين الإلهي المعجز الذي يتمثل فى اتحاد خفي بين متعارضين أحدهما يمثل الظاهر وهو الجسد والآخر يمثل الباطن وهو الروح، فلم يدرك آدم أو يعاني لدغة المطالب البشرية " إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى"[19].

أما الملكات والطاقات الإنسانية التي اختتمت بها مرحلة التسوية فكانت فاعلة فى تلك الحال التي كان عليها آدم وزوجه، فملكة القدرة على الاختيار وهي أساس المسئولية التي حملها الإنسان ، تمثلت فى افعل ولا تفعل أي فى " كلا منها رغدًا حيث شئتما"، " ولا تقربا هذه الشجرة"[20] ، وكانت وسوسة الشيطان وهو رمز الشر محط اختبار آخر بعد أن حذر الله آدم وزوجه منه قائلاً " إن هذا عدو لك ولزوجك" ، بيد أن المخلوق الجديد لم يستطع أن يصمد

[18] انظر تفسير الماتريدي أبي منصور.

[19] 118 ، 119 سورة طه / 117 سورة طه.

[20] 118 ، 119 سورة طه / 117 سورة طه.

ويقاوم فاختار اللذة التي يكمن العصيان فيها، ومن الطريف أن يرى البعض أمثال بشار بن برد أن الاستمتاع باللذة مقترن بـ " لا تفعل " أو بالحرام بقول :

وإن قالوا حرام قل حرام .:. ولكن اللذاذة فى الحرام

وفى ضوء ما سبق فإن ملكات السمع والبصر والفؤاد والعقل كانت فاعلة فى اختيار آدم وميله إلى العصيان. أما نتيجة العصيان التي بدت فى ظهور السوءات أي الإحساس بها ومحاولة آدم وزوجه تغطيتها بأوراق شجر الجنة، فهي من الأسرار العجاب، وسوف نعرض لها فيما بعد.

وإذا كانت الجنة تلك دالة على مكان سكنة آدم وزوجه، فهذا لا يمنع القول بفكرة الحال التي كانا عليها، وربما كانت الجنة باعتبارها مكاناً سبباً فى تبلور تلك الحال، فطبيعة المكان وما يحتويه قد يكون ضرورة لبروز الحال، كما أن الجسد مسكن الروح دال على وجودها وإبراز كوامنها.

ولا يمكن قصر الأكل فى قوله تعالى : " وكلا منها رغدًا حيث شئتما" على المعنى الحرفي للكلمة وهو وضع الطعام فى الفم ومضغه لإشباع المعدة ففي الأكل معنى التذوق المادي والاستمتاع المعنوي الذي يشمل متعة النظر واللمس وهنا يتسع معنى الأكل ويزداد عمقاً لاقترانه بالرَّغد وهو من العيش الكثير الواسع الذي لا يتعب فيه، ويقال: هو فى رَغد من العيش: رزق واسع، والرزق يشمل ألواناً من النعيم لا يمكن حصرها ولا قصرها على المادية وحدها، وجملة "حيث شئتما" تجسد الإرادة القائمة على الاختيار ، والجمع بين الأشياء؛ اختيار ما يروق لهما من جانب والجمع بين ألوان مختلفة من النعيم من جانب آخر.

وإذا كانت الجنة ركناً مهماً فى هذا المشهد، فإن الشجرة تعد حجر زاوية فيه، والشجرة لغة: نبات يقوم على ساق صلبة، والنبات بوجه عام له ثمر، وعلى هذا فالشكل العام للشجرة على المستوى اللغوي، له بعد التعدد والكثرة المتمثلة فى الثمار وعملية التلقيح أساس الإثمار، وهي عملية دورية تمنح أو تحقق فكرة الاستمرار النوعي ولو إلى حين، ومن هذا المنظور اللغوي يمكننا القول بأن الشجرة إشارة رمزية إلى قضية الجنس الذي يحقق التناسل والتكاثر واستمرار النوع الإنساني، ويجب أن نلفت النظر إلى أن الآيات عندما أباحت لآدم وزوجه التمتع بكل ألوان النعيم فى الجنة استخدمت لفظ " كلا"، أما فى التقييد أو النهي استخدمت لفظ " تقربا" مسبوقًا بـ " لا" الناهية، وفى المعجم قرب الشئ قُربا وقربانا: دنا منه وباشره، فالقرب من الشىء يؤدي إلى مباشرته أي فعله وإتيانه، وباشر زوجه مباشرة : لامست بشرته بشرتها، وغشيها وفى التنزيل العزيز: "ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد" وباشر الفعل : فَعله من غير وساطة، فاختلاف الفعل فى الإباحة التي هي أصل التشريع ، " كُلا" ، وفى النهي عن الشجرة " لا تقربا" يعني أن هذه الشجرة مسألة رمزية وأنها لم تكن للأكل من ثمرها، وأن هناك ملكة أخرى أراد الله تعالى اختبار آدم وزوجه فى كيفية التعامل معها بالسيطرة عليها أو الامتثال لها، وهي طاقة الشهوة الجنسية وتلك كانت كامنة فى آدم وزوجه ولكنهما لم يكونا يشعران بها ولم يدركا وجودها عندما أمُرا بأن يسكنا الجنة، وأن الشيطان باعتباره روحاً مغويًا ، كما ورد فى المعجم – هو

الذي لفتهما إليها وأيقظها من مكمنها، فتحركت فيهما هذه الشهوة، وكان أن واقع آدم زوجه، ووقع العصيان الذي استوجب العقاب بأن أخرجا من الجنة، وما ذهبنا إليه آنفًا يعني أن إبليس الذي استبدل اسمه الحقيقي بالرمز الدال عليه "الشيطان" كان يعلم بوجود ملكه الشهوة ويدرك خطورتها وأبعاد آثارها على مستقبل هذا المخلوق الجديد " آدم".

وبهذا نجح إبليس فى إغواء آدم وزوجه، والذي يعد فى الوقت ذاته اختباراً لقوة الشر التي سيواجهها إنسان هذا الكون وذريته فيما بعد، وفى مقابل هذا فشل آدم فى الاختبار، ولم يظهر له عزم فى مقاومة وسوسة الشر من ذلك العدو الذي تم تحذيره منه يقول تعالى : " ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما"[21] ونرى أن العهد هنا يعني أمانة المسئولية عن العمل ، وذكر النسيان فى الآية باعتباره آفة لازمة فى حياة الإنسان، نراه التماس عذر له فيما أقدم عليه من عصيان، ودليل ذلك أن الله علمه كلمات ليتوب بها، وتقبل الله توبته، وانتهى الأمر. ولكن يبقى ضعف العزم الإنساني فى مواجهة الشر وما يصحبه من معنويات لاسيما مقاومة شهوة الجنس التي قد تدمر إذا وضعت فى غير موضعها، وفيها حياة واستمرار النوع إذا ما استخدمت فى إطار ما وضع لها من ضوابط ، فهذه الطاقة تحمل فى ثناياها نقيضين ، كما أن الماء ينطوي على الحياة والموت فى آن واحد.

أما الظلم المذكور فى الآية " فتكونا من الظالمين" والذي يحمل معنى التحذير والعقاب معًا ، فإن له ألوانا من المعاني؛ منها جاروجاوز الحد، وضع الشئ فى غير موضعه ، وظلم فلاناً حقه: غصبه أو نقصه إياه، وظلم الطريق: حاد عنها، ونحن نرى أن أقرب هذه المعاني إلى سياق الآيات وأحداث القصة هو: وضع الشئ فى غير موضعه، أي أتى من الفعل ما لم يكن ينبغي أن يفعله فى المكان والزمان، وهذا ما أقدم عليه آدم وزوجه فى الحال التي كانا عليها وفى الجنة التي أسكنا فيها، فقد كانا خارج خارطة القدرة على إدراك طاقة الشهوة التي ركبت فيهما عند اكتمال التسوية لأنهما كانا فى معزل عنها إلى حين. والمعنى الآخر الذي نراه قريباً من السياق القرآني فى معرض هذه القصة هو: ظلم الطريق: حاد عنها، وهذا ما أقدم عليه آدم وزوجه بعد أن وضعت لهما خطة حياتهما فى تلك الجنة، وتلخصت فى الإباحة والتقييد، فلم يلتزما بالمقيد ومالا إلى بسط رداء الأمر بالتمتع بألوان النعيم فى الجنة إلى الشجرة المستثناة والتي نهاهما ربهما عن الاقتراب منها؛ وبذلك فقد حادا عن الطريق ولم يعملا بالمنهج.

وجاءت النتيجة ذات بعدين أحدهما خاص بالشيطان فقد نجع فى مهمته، والآخر متعلق بآدم وزوجه فقد فشلا فى مقاومة الشر وكبح جماح نوازعه ، وما تزال ذريتهما تعاني هذا الضعف فى تزكية النفس، وأضحى الإنسان مخلوقاً ضعيفاً على المستويين المادي والمعنوي إلى أن يأذن الله تعالى وهذا تأويل " فأزلهما الشيطان عنها" وفى اللغة : زلّ عن مكانه: تنحى عنه، وأزله: نحاه عن مكانه، والهاء فى "عنها" ضمير عائد على الجنة.

[21] الآية 115، سورة طه.

وهناك علاقة سببية تلازمية بين " أزلهما عنها" و " أخرجهما مما كانا فيه" فالأولى سبب فى حصول الثانية، وكان الإخراج على مستويين الأول مادي وهو الجنة، والثاني معنوي وهو الحال التي كانا عليها؛ إلى مكان آخر، وحال مغايرة تمثل أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس.

ثم فى نهاية المشهد يأتي الأمر بالخروج " وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين " وفى اللغة : هبط : نزل وانحدر، والنزول ليس شرطاً أن يكون من مكان عال، وإنما يعني فى هذا السياق الخروج أو مغادرة الجنة إلى لا مكان محدد ولكن إلى الأرض على امتدادها لتكون مستقراً ومتاعاً إلى أن يشاء الله. ومن زاوية أخرى يمكن أن يكون الهبوط هو الخروج من الحال التي كان عليها آدم وزوجه، والانحدار إلى حال أخرى، أقل شأنا ومغايرة للحال الأولى، ويأتي الأمر بالهبوط فى صيغة الجمع " اهبطوا" بعد أن كان فى صيغة المثنى على امتداد آيات هذه القصة وما تخللها من أحداث وهذا يعني أن تلك الجنة كانت مباحة لإبليس، وكذلك فممارسة العملية الجنسية المرموز لها بالشجرة، خلق حالاً جديدة وهي تحقق فكرة التناسل أو التكاثر، وبهذا جاء الأمر " اهبطوا" فى صيغة الجمع وهذه الصيغة تشمل آدم وزوجه وذريتهما على اعتبار ما سيكون وكذلك إبليس، وثبتت بهذا صورة الصراع الذي بدأ فى الجنة وقدر له أن يستكمل خارجها فى الأرض الممتدة إلى نهاية الحياة.

والصراع فى هذا السياق ذو شقين : الأول بين الإنسان وقوى الشر متمثلة فى الشيطان، والثاني بين ذرية آدم بعضهم البعض، وهنا تظهر آثار أولئك القوم الآخرين " البشر" الذين قالت عنهم الملائكة : إنهم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء، والذين اصطفى الله آدم من ذريتهم، فيبقى الفساد سائداً، وتظل أنهار الدماء تجري فى كل مكان حتى تقوم الساعة.

وتترى الرسل من عهد آدم إلى بعث محمد صلى الله عليه وسلم يحملون الهدى إلى الناس فى كل مكان، فهناك من اهتدى وهناك من كذّب وكفر، وكل من الفريقين جزاؤه معروف.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أبو عبداللاه محمد ابن أحمد الأنصاري القرطبي. متوفى 671 هـ ج1،2 – دار الكتب العلمية بيروت – 2005.
- أبوالعباس محمد ابن يزيد ابن عبدالأكبر المعروف بالمبرد. دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1956.
- أبوالعلا المعري. 363 – 449 هـ ديوان أبي العلاء المعري: اللزوميات – سقط الزند – ضوء السقط .
- المختار كريم – أستاذ اللسانيات – جامعة تونس – معجم ألفاظ الشعر الجاهلي ومعانيه.
- المعجم الوسيط – الروافد الثقافية – مجمع اللغة العربية – القاهرة – 1998 – ج 1، 2 .
- ديوان بشار بن برد.
- محمد إقبال – دار الكتاب المصري، ج1، 2 ، تجديد الفكر الديني في الإسلام.
- مصطفى محمود- محاولة لفهم عصري للقرآن الكريم – دار المعارف1999.